حتى صح

أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب والعجم فكان يخاطب كل طائفة من العرب بلسانها
ويحاورها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير مرامه
ومع ذلك لم يكن صلى الله عليه وسلم متعاطيا للبلاغة ولا مخالطا لأهلها من خطباء وشعراء وفصحاء
بل كان مخالطا للأغمار الناس فليس ذلك إلا من إعجاز فطرته وبداية جبلته وتأييد إلهي يمده الوحي الذي
لا يحيط بعلمه بشر ولا يعلم أحد لم قط إلا الله سبحانه خالق القوى والقدر وحاز صلى الله عليه وسلم كمال
الأفعال بحسن سيرته وصحة سياسته وجمع بين رغبة من استمال ورهبة من استطال وعدل فيما شرع
من الدين ولم يمل بأصحابه إلى رغبة في الدنيا ولا إلى رفضها وتصدى لمعالم الدين ونوازل الأحكام
وتصدى لجهاد الأعداء وخص بالشجاعة في حروبه ومنح من السخاء ما اختص به دون سائر الخلق
أما حسن سيرته وصحة سياسته فشاع ذكرها في الأقطار واشتهرت كالشمس في رابعة النهار فمهد للأمة
دينا ابتكر شرعه وتدبيرا أحسن وضعه نقلهم بهما إلا الله عن مألوفهم إلى غير مألوف وصرفهم بهما عن معروف
لهم إلى غير معروف فأذعنت له النفوس طوعا وكرها وانقادت له الأنفس خوفا وطمعا وتنقيه
نقل الخلائق من العادات إلى غير عادات إلا من حصل له التأييد الإلهي وكان معانا بحزم صائب وعزم
ثاقب ولئن كان مأمورا بما شرع فهي المعجزة الظاهرة أو كان مجتهدا فيه فهي الآية الباهرة وناهيك
بما استقرت قواعده على الأبد حتى انتقل من سلف إلى خلف تزداد فيهم نوابه وتشتد فيهم حدته ويرونه
نظاما للأعصار تنقلب صروفها ويختلف مألوفها وأما جمعه بين رغبة من استمال ورهبة من استطال
فلحكمته حتى اجتمع الفريقان على نصرته وقاموا بحقوق دعوته رغبا في عاجل وآجل ورهبا من زائل
ونازل ولأجل اختلاف الشيم والطباع في الانقياد والطاعة للمطاع لا ينتظم ذلك بأحدهما ولا
يتم إلا باجتماعهما فلذلك صار الدين بهما مستقرا والصلاح بهما مستمرا لمن تختلف الشيم في الرغب
والرهب فمنها ما ينقاد بالرغب وإن لم يستغن عن رهب ومنها ما ينقاد بالرهب وإن لم يستغن
عن رغب فيغلب في كل واحد أغلبهما عليه فليس الناس على اتفاق في الأخلاق وبحسبها
تختلف سياستهم فاحتيج في صحة سياسته إلى صحة الفراسة ليكون التدبير موافقا للسبيه
ومطابقا للموجب وقد كان صلى الله عليه وسلم أخبر العباد بالعباد وأتوهم بطريق الاجتهاد
فلذلك صحت سياسته وحسنت سيرته وأما عدله فيما شرع من الدين فكان متوسطا بين
غلو النصارى في التشديد وبين تهوين اليهود في التقصير وخير الأمور أوسطها لأن العدل
بين طرفي سرف وتقصير وليس لما جاوز العدل حظ من رشاد ولا نصيب من سداد والتوسط
جاذب وباعث على الإجابة إليه فكان لذلك أحمد وبالصلاح أعود لأنه بالعدل أوفق وبالمدعو
أرفق وأما عدم ميله بأصحابه إلى رغبة في الدنيا ولا إلى رفضها فهو الأرفق بأمته فلم يأمرهم بالرغبة
كما رغبت اليهود ولم يأمرهم بالرفض كما ترهبت النصارى بل أمرهم بالاعتدال وأن يطلبوا
منها قدر الكفاية ويعدلوا عن دواعي الامتنان والاستزادة لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال والجمع بينهما
اعتدال

اعتدال قال صلى الله عليه وسلم نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة وإنما كان كذلك لأن منها يتزود
العبد لآخرته ويستكثر فيها من طاعته وأما تصديه لمعالم الدين ونوازل الأحكام فلأجل أن
وضح للأمة ما كلفوه من العبادات وبين لهم ما يحل ويحرم من المباحات والمحظورات وفصل لهم ما يجوز
ويمتنع من عقود المناكح والمعاملات حتى احتاجت أهل الملل والأديان إلى شرعه عليه الصلاة والسلام
في كثير من معاملاتهم ومواريثهم ولم يحتج شرعه إلى شرع غيره في شيء البتة ثم مهد لشرعه أصولا تدل
على الحوادث المغفلة ويستنبط منها الأحكام المعللة فأغنى عن النص بعد ارتفاعه وعن القياس
بعد إغفاله ثم أمر الشاهد أن يبلغ الغائب ليعم بإنذاره ويحتج بإظهاره فقال بلغوا عني ولا
تكذبوا علي فرب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه حتى صار لما تحمله
من الشرع مؤديا ولما تقلده من حقوق الأمة موفيا فلم يكن منه في حقوق الله زلل ولا في مصالح الأمة
خلل وذلك في برهة من زمانه ولم يستوعب زمان بيانه بل أوجز وأنجز وما ذاك إلا أمر بديع
غريب ومعجز ظاهر وأمر عجيب وأما انتصابه لجهاد الأعداء فأمر متواتر فإنهم قد أحاطوا بجهاته
وأحدقوا بجنباته وهو في قطر مهجور وعدد محقور فزاده بمن قل وعزه من ذل وصار
بإثخانه في الأرض محذورا وبالرعب على الأعداء منصورا فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهر
وانتشر وبين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر وانتصر والجمع بينهما من واحد متعذر إلا لمن أمده الله
باللطف والتأييد وأما ما خص به من الشجاعة في حروبه والنجدة في مصابرة عدوه فإنه عليه الصلاة
والسلام لم يشهد حربا في قراع قد كثر وتكرر إلا تثبت ونصر حتى تنجلي عن دفاع أو ظفر وهو صلى الله
عليه وسلم في موقفه لم يزل عنه هاربا ولا حاد فيه راغبا بل ثابت بقلب آمن وجأش ساكن ولقد
ولى عنه أصحابه يوم حنين حتى بقي بإزاء جمع كثير وجم غفير في تسعة من أهل بيته وأصحابه
وهو على بغلة مسبوقة إن طلبت وملحوقة إن طلبت عن مستقر لهرب وهو يظهر نفسه
وينادي أصحابه ويقول إلي عباد الله أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب فعادوا إليه أفذاذا
وأرسالا وهوازن تراه وتحجم عنه فما هاب حرب من كاثره ولا انكفى عن مطاولة من صابره وقد
عضده بأجناد أنجاد تولوا وصبروا وتوازروا وظهروا حتى أمده الله بنصره وأظهره بصيرة وقد
قال علي بن أبي طالب كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون
أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا
إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا وما لقي كتيبة إلا كان أول من يضرب فيها بسيفه فما
لشجاعته صلى الله عليه وسلم من عديل ولا لثباته على المصابرة من بديل وما ذاك إلا من ثقته من الله تعالى
أنه سينصره وأن دينه في الآفاق سيظهره وكفى بهذه ثباتا بجأشه وشاهدا على صدقه وأما
ما منح به من السخاء فناهيك به فقد جاد بكل موجود وآثر بكل مطلوب ومحبوب ومات صلى الله
عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله وقد ملك جزيرة العرب

صلى الله عليه وسلم

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)